

التاريخ الاجتماعي للمغرب الوسيط: أنموذج المهمشين ملاحظات وتساؤلات

عبد الإله بنمليح

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس

تتعدد مسؤوليات المؤرخ اليوم، بتنوع المصادر التي يعتمد عليها وتتطور مناهج الكتابة التاريخية، وظهور رؤى جديدة ومتباينة. إن "مسؤولية المؤرخ تلمي عليه أن يتحول بالنسبة لمن لم يساهموا في كتابة تاريخهم.. إلى دليل للغائبين والمنسيين، يتجاوز في رهان كتابته ما تضمنته مدونات المكتوب عنهم من المصادر والبحوث من خارج ذلك الإطار".¹

ظلت نظرة المؤرخين المحدثين إلى التاريخ الإسلامي برمته لزمن طويل من زاوية إثنية أو مذهبية أو إقليمية، أو تم اعتباره سلسلة بطولات فردية؛ كل ذلك في إطار رسمي يوالي السلطة القائمة. وعندما تم الالتفات إلى المعارضة، اقتصر التناول على المعارضة السياسية أو الدينية أو هما معا: الشيعة والخوارج والمرجئة، في حين ظلت حركات انتفاضات الفلاحين والحرفيين ضمن إطار "المسكوت عنه" أو "اللامفكر فيه".²

ويقود هذا التشخيص إلى القول بعدم اهتمام المصادر الإسلامية بهذه الحركات، وبالتالي فقر المادة المصدرية التي تهتم بها، غير أنه من الضروري الاعتراف بوجود مظان أخرى ضمت أخبارا تهم شرائح اجتماعية بعيدة عن مجال السلطة، مثل كتب الفلاحة والتجارة والحيوان والفقه والنوازل والرقائق..³

وإذا كان هذا حال التاريخ الإسلامي بصفة عامة وبصورة مركزة، فما هو حال الكتابة التاريخية المغربية عن المجتمع والفاعلين فيه، خلال العصر الوسيط، موضوع هذه الورشة؟ وما مدى

¹ - مبروك الباهي، القبيلة في تونس في العهد الحديث (16 - 19 ق)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، مطبعة توب للطباعة، تونس، 2005، ص 9.

² - محمود إسماعيل عبد الرازق، المهمشون في التاريخ الإسلامي، دار رؤية، القاهرة، 2004، ص 7.

³ - نفسه، صص 7 - 8.

استفادة رجالها من التحول الذي عرفته نظيرتها في الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وأوروبا الغربية خاصة؟¹

في ظل غياب إحصائيات دقيقة عن الأعمال التاريخية ذات المنحى الاجتماعي التي ظهرت بالمغرب منذ الاستقلال، وفي ظل ضعف التواصل والتنسيق بين البحث العلمي في الجامعة المغربية وبين المركز الوطني للتوثيق، فإنه يصعب، إن لم نقل يستحيل، رسم صورة متكاملة عن البحث في التاريخ الاجتماعي المغربي خلال العصر الوسيط. لذلك فإن ما تسعى إليه هذه الورقة إنما هو إلقاء الضوء على أعمال جامعية، قدمها أصحابها لنيل شهادة علمية. وهي أعمال تصرح عناوينها بمضامينها الاجتماعية. انكب أصحاب هذه الأعمال على الاهتمام بالعناصر الاجتماعية المكونة للمجتمع ودراسة العلاقات التي تربطها بسائر مكوناته: السلطة والأعيان والنخب...، فضلا عن تلك التي تربطها فيما بينها. وهو مسعى كان يروم اختراق الصمت الذي كان يلف هذه العناصر، ومحاولة مساءلتها واستنطاقها، عبر الالتفات إلى مصادر ووثائق وكتابات لم توجد أصلا لهذا الهدف، خاصة وأن أمية هذه العناصر وقفت حائلا أمام التعريف بأفرادها وحركيتهم في المجتمع الذي وجدوا فيه وساهموا في صنع تاريخه. وهي مبادرة استلزمت غربة صارمة وحازمة للكتابات الشائعة والمتكررة، وتطلبت جهدا كبيرا من أجل الكشف عن أخرى ظلت مغيبة.

وسنحاول في هذه الورقة إثارة مجموعة من القضايا المرتبطة بموضوع المهمشين في تاريخ المغرب ونصيبهم من الكتابة التاريخية الوسيطية. وهو لا يعدو أن يكون مشروعا باعتبار استحالة إيفائه حقه، في غياب إحصاء يهم جميع الأعمال التاريخية ذات المنحى الاجتماعي، كما سبقت الإشارة، خاصة أمام تصاعد وتيرة الاهتمام بمثل هذه الجوانب في السنين الأخيرة. ولأجل ذلك سيقصر الأمر على اختيار نماذج لأطروحات جامعية، بعضها منشور، جزئيا أو كليا والآخر مازال مرقونا، حبيس رفوف خزانات الكلية التي نوقشت فيها. وتم تحديد هذه النماذج في ستة:

- 1 - الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، لإبراهيم القادري بوتشيش.
- 2 - عامة قرطبة في عصر الخلافة: دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، لأحمد الطاهري.
- 3 - مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، 10م، لهاشم العلوي القاسمي.

¹ - انظر في هذا الصدد مساهمة جان كلود شميت Jean-Claude Schmitt بعنوان: "تاريخ الهامشين"، صص 437 - 480، ضمن كتاب التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، بيروت، لبنان، 2007.

4 - مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين 8 - 9هـ، 14 - 15م: مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي: العامة - الخاصة - الطبقة - المرتبة، لمحمد ياسر الهلالي.

5 - عامة المغرب الأقصى في العصر الموحد، لأحمد المحمدي.

6 - الرق في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين 5 - 6هـ، 11 - 12م، لعبد الإله بنمليح.

وقد ارتأينا استبعاد الأنموذجين الأخيرين [05 و 06] الأول لأننا لم نتمكن من الاطلاع عليه بعد، والثاني لاعتبارات ذاتية تكمن في صعوبة التقويم الذاتي، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالتصنيف والتموقع.. فاقصرنا على بعض الإشارات السريعة التي تخص العاملين معاً.

أتاحت لنا قراءة مقدمات الأعمال المختارة، طرح مجموعة من التساؤلات وإبداء عدد من الملاحظات، من قبيل:

- كيف استوعب أصحاب هذه الأعمال مفهوم التاريخ الاجتماعي بمختلف تلويناته وفروعه

وتجلياته ؟

- لماذا تم التوجه إلى التاريخ الاجتماعي؟ هل هناك حوافز ذاتية إلى جانب أخرى موضوعية؟

من قبيل نشر نصوص جديدة أو التفات إلى مصادر ظلت غفلاً، أم تحت تأثير الكتابة التاريخية الأوربية الوسيطية، علماً أنه لا يوجد من بينهم من درس بجامعة غير مغربية، عدا واحد [أحمد المحمدي، جامعة بوردو الفرنسية] أو تماشياً مع تطور الكتابة التاريخية وانفتاحها على حقول معرفية أخرى كالسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا...

- سواء تعلق الأمر بستة أعمال لقيت أصداء واسعة بين الجامعيين والباحثين، أو بعشرين

عملاً، فإن ذلك ليس كافياً للقول بخطوة التاريخ الاجتماعي الوسيط بنصيب مهم ضمن الكتابة التاريخية المغربية، فما السر إذن في عزوف العديد من الباحثين عن الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي ؟ هل يرتبط الأمر فقط بطبيعة التكوين والتوجيه في مراحل سابقة ؟ أم بعوائق أخرى ؟

- لماذا غابت مباحث هم منسجي التاريخ ضمن التاريخ الاجتماعي المغربي، خاصة على شكل

عناوين بارزة في أطاريح جامعية ذات منحنى اجتماعي ؟

- هل يمكن الحديث بعد كل هذا وذاك عن آفاق البحث في التاريخ الاجتماعي الوسيط،

وتاريخ المهمشين بصفة خاصة، في ظل الإصلاح الجامعي البيداغوجي الذي انطلق العمل به منذ

2003 وهل يمكن المراهنة على وحدات البحث والماسر وفرق البحث و المختبرات للقيام بهذه المهمة ؟ بعد تجارب وجدة وفاس ومكناس على سبيل المثال.

إنها مجموعة تساؤلات عنت لنا ونحن بصدد التفكير في المشاركة في هذه الورشة. ولا تدعي هذه الورقة تقديم إجابات أو إيجاد تفسيرات، بقدر ما تهدف إلى إثارة النقاش وإشراك المهتمين بالموضوع.

كما أن اقتناعنا كبير بأن هناك أسئلة أخرى يضيق بها المقام، وتتطلب لوحدها أبحاث خاصة مستقلة، سوف أختزلها في واحدة — في انتظار اقتراحاتكم — وهي مساءلة المصادر المعتمدة في كتابة التاريخ الاجتماعي المغربي الوسيط التي لم تحظ — حسب علمنا — بوقفة متأنية شبيهة بتلك التي قام بها ثلة من الأساتذة الباحثين في التاريخ الاجتماعي المغربي الحديث والمعاصر، التي صدرت هذه السنة¹. إذ يتطلب الأمر عرض مستويات هذه الكتابات ومنحياها المتعددة والمتباينة، وتجاوز عقبة الأصوات العديدة التي صدحت سابقا بالقول باستحالة الكتابة عن العوام.

1 - مفهوم التاريخ الاجتماعي كما استوعبه أصحاب الأطاريح الجامعية:

يرى هاشم العلوي القاسمي في مقدمة أطروحته " مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، 10م " أنه من الصعوبة اختزال التاريخ في عملية سرد الأحداث فقط، وإقصاء التصورات الرمزية التي تكونها في الذهنية، باعتبار أن المعنى الرمزي في كل مجتمع هو الذي يكون تاريخه، ليتحول التاريخ من المعنى الخيري إلى ما تنتجه العقلية من " تصورات ورموز تتجدد وتتطور وتغير وقائع الحياة اليومية " ² حسب تعبيره. وفي مناسبة أخرى ينص الباحث نفسه على أن التاريخ الاجتماعي " يتطلب ملاحقة الظواهر في أصولها وتطورها " ³.

¹ - انظر الكتابات التاريخية في المغرب: الهوية، الذاكرة والإستغرافيا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007.

² - منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995، 1 : 13.

³ - نفسه، 1 : 46.

ومن جانب آخر يخلص إبراهيم القادري بوتشيش إلى أن " إعادة كتابة تاريخ المغرب انطلاقاً من رؤية علمية رصينة ومعايير موضوعية صارمة، تهدف إلى سبكه وصياغته صياغة جديدة، وإدخاله في تيار المنظومة الشمولية؛ وتطهيره من مثالب الكتابات التقليدية المترهلة، والتخريجات الاستعمارية المملوغة بالافتراءات والتشويه، يستلزم كشف النقاب عن تاريخ العوام..¹ "

فهل يمكن أن نقرر مع هذا الرأي أن تجاوز الكتابة الاستعمارية وإدماج تاريخ المغرب ضمن منظومة شمولية يمر إلزاماً عبر التوجه إلى التاريخ الاجتماعي، بل إلى تاريخ العوام ؟ أليس في الأمر اختزالاً للتاريخ الاجتماعي في دور فاعل واحد هو العوام ؟

أما أحمد الطاهري فإنه يقرر أن الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي هو السبيل الأوضح للوصول إلى " قراءات أكثر تكاملاً ودقة وشمولاً لتاريخ الإسلام " ² . وهي صورة أكثر شمولية، بحيث يجعل من الكتابة في التاريخ الاجتماعي حلقة ضمن حلقات البحث، ووسيلة للوصول إلى هدف أعلى، وليس غاية في حد ذاته.

2 - لماذا تم التوجه إلى التاريخ الاجتماعي المغربي الوسيط ؟

يقرر أحد الباحثين أن الانصراف إلى التاريخ الاجتماعي لن يتم إلا بتجاوز قراءة تعتمد المعيار السياسي (تسلسل الأسر الحاكمة. والأحداث السياسية والعسكرية) أو المعيار الحضاري (تسلسل كرونولوجي لحضارة السلالات والأجناس)، وذلك باتجاه قراءة تتبنى معياراً اجتماعياً يقوم على رصد الأدوار التي اضطلعت بها مختلف الشرائح الاجتماعية، وضمها المستضعفة أو المنسية³ .
تحدد العوامل الموجهة في:

¹ - "تاريخ العوام في مغرب العصر الوسيط بين فقر الوثائق وإمكانيات التجاوز: طرح ومناقشة من خلال كتب العقود والوثائق"، ضمن كتاب تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص 27.

² - "طبقة العامة في المجتمع الإسلامي: إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي"، ضمن كتاب دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص 9.

³ - محمد استيتو، الفقر والفقر في مغرب القرنين 16 و17، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، 2004، ص 11.

- حوافز ذاتية: وهي الحوافز التي غالبا ما يأنف الباحثون من الحديث عنها، لأسباب غامضة.
- حوافز موضوعية: يمكن تلخيصها في:

+ ظهور نصوص جديدة،

+ التفات إلى مصادر ظلت غفلا،

+ تطور مناهج الكتابة التاريخية المغربية، الذي يجسده انفتاحها وتأثرها بالكتابة الأوروبية مثلا.

نص محمد ياسر الهلالي في أول سطور أطروحته الجامعية: "مجتمع المغرب الأقصى خلال

القرنين 8 - 9هـ، 14 - 15م: مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي: العامة - الخاصة - الطبقة - المرتبة" على الدوافع التي جعلته يقبل على التاريخ الاجتماعي، وأرجعها إلى مرحلة تكوينه الجامعي، خاصة في مرحلة دراسته لنيل شهادة استكمال الدروس المعمقة، حين عمقت دراسته للمدينة الإسلامية الوسيطة اهتمامه ووجهه إلى: "موضوع التراتب الاجتماعي.. الذي ما زالت مجموعة من حيثياته مبهمة"¹، حسب تقديره.

ويقترح الباحث نفسه تجاوز فكرة غياب مصادر التاريخ الاجتماعي المغربي الوسيط إلى فكرة إعادة قراءتها من جديد، قراءة متأنية².

وكانت ملاحظة الباحث المتعلقة بعدم ضبط مصطلحات التاريخ الاجتماعي وراء تحويل صاحب العمل مداخل عمله إلى غايات، فتحول العنوان أطروحته من: "تاريخ العامة بالمغرب الأقصى خلال القرنين 8 - 9هـ، 14 - 15م إلى: "مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين 8 - 9هـ، 14 - 15م: مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي: العامة - الخاصة - الطبقة - المرتبة"³. ويلاحظ في هذا الاتجاه تأثر صاحب العمل بموضوع عاجله باحث آخر هو محمد حناوي، وقدمه بجامعة تولوز لنيل شهادة دكتوراه السلك الثالث، سنة 1984، تحت عنوان:

Les concepts de classe et de lutte des classes au moyen age dans l'historiographie récente de langue française et de langue anglaise

مما يفيد بوجود هاجس تحقيق تراكم في هذا الاتجاه، ولو على المستوى المنهجي.

¹ - أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2000، مرقونة، 1: 1.

² - نفس المكان.

³ - نفسه، 1 - 2.

ييشر أحد أصحاب النماذج المعتمدة في هذه الورقة بإمكانية تجاوز عائق شح المادة المصدرية عبر اعتماد أو ولوج عالم كتب المناقب والتصوف والنوازل الفقهية والنصوص الزجلية والأمثال الشعبية والتراجم¹.

بل إن الباحث نفسه يدعو إلى ضرورة سعي المؤرخين إلى استعادة تاريخ المجتمعات والذهنيات من أيدي السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين، عن طريق الاقتناع معه أن التاريخ الاجتماعي إنما هو " عطاء صادق وانعكاس جيد لأرضية تاريخية تجعل منه حقلا خصبا للبحث التاريخي، وموضوعا في أمس الحاجة إلى الاستقصاء والبحث من وجهة نظر المؤرخ"².

3 - ما سر عزوف الباحثين المغاربة عن الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي ؟

+ طبيعة التكوين والتوجيه.

+ قلة المصادر وشح المادة المصدرية.

+ عوائق أخرى.

عجلت مطالعة أحد الباحثين لمصادر ومراجع عديدة بإقدامه على اقتحام موضوع التاريخ الاجتماعي " رغم أن دراسات سابقة جانبت طرقه بدعوى انعدام الوثائق والإحصائيات"³.

ومع ذلك لم يتوقف البعض من هؤلاء الباحثين عن ترديد فكرة شح المادة المصدرية، محاولا البحث عن أسبابها، التي حصرها في إحجام المؤرخين القدامى عن طرق جوانب عديدة تهم التاريخ الاجتماعي، التي ترد بشكل عرضي، وفي سياقات أخرى، عبر إشارات متفرقة ومقتضبة⁴.

وفي مكان آخر يقرر الباحث نفسه أن هناك صعوبات أخرى غير شح المادة والمصدرية تواجه الكتابة في التاريخ الاجتماعي المغربي الوسيط، حددها في:

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص 5.

² - نفس المكان.

³ - محمد ياسر الهلالي، م.س، 1 : 1.

⁴ - إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص 5.

- ضياع مصادر مهمة بفعل لاإرادي [الزمان] أو بفعل إرادي [الخلافات السياسية والمذهبية إضافة إلى الحقد والتعصب والكراهية]¹.

- إهمال المصنفات القديمة الحياة اليومية للعوام والمهمشين، التي لم تشر إليهم "إلا بأنصاف الكلمات"² على حد تعبيره.

ويقدم صاحب العمل ذاته أنموذجا لإعادة بناء تاريخ المهمشين والعوام عن طريق ولوج عالم كتب الوثائق والعقود³.

غير أن صاحب أحد النماذج المنتقاة في هذه الورقة وهو أحمد الطاهري فإنه يسجل بنوع من الأسى وبنظرة سوداوية عدم استجابة الباحثين المغاربة لنداءات متعددة بالكتابة عن التاريخ الاجتماعي، ويقرر: "لم تثمر الدعوات المتكررة للاهتمام بالتاريخ الاجتماعي ما يكفي من التراكم المعرفي لتحقيق قراءات أكثر تكاملا ودقة وشمولا لتاريخ الإسلام"⁴.

4 - آفاق البحث في تاريخ المهمشين في العصر الوسيط المغربي:

إلى جانب الدراسات الأكاديمية كان الرهان قائما في الجامعة المغربية منذ عقود على فرق البحث ومجموعات البحث والمراكز والمعاهد التابعة لكليات الآداب والعلوم الإنسانية، لترسيخ قنوات بإيلاء التاريخ الاجتماعي حقه الكبير من العناية والبحث، غير أن الإصلاح الجامعي الذي بدأ مع سنة 2003، وما واكبه من هيكلة جديدة لمنظومة الفرق والمجموعات، خلخل مجمل القنوات القائمة، ووجه الاهتمام في شعب التاريخ إلى مسالك جديدة غلب عليها عنوان: "التاريخ والحضارة"، واقتصر حضور التاريخ الاجتماعي في بعض مسالك التاريخ على مجزوءات تلامس التاريخ الاجتماعي مثل البنيات القبلية والديمقراطية التاريخية وما شابههما.

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش، العوام في مغرب العصر الوسيط، م. س، ص 27.

² - نفسه، ص 28.

³ - نفس المكان.

⁴ - أحمد الطاهري، "طبقة العامة.."، م. س، ص 9.

فهل يمكن مع كل هذا وذاك التعويل على رسم مسارات جديدة للتاريخ الاجتماعي في حظيرة شعب التاريخ ومسالكها ؟

خلاصات:

- لا تدعي هذه الورقة تسطير خلاصات نهائية بقدر ما تود تسجيل ملاحظات أولية، منها:
- عدم وضوح الخواطر الذاتية للبحث في التاريخ الاجتماعي وغلبة التأفف من ذكرها.
- التقيد بزمان فلكي في معظم الأطروحات أفقد البحث امتداداته الطبيعية، وربما كان الأفيد اعتماد زمن اجتماعي يرتبط بالموضوع على امتداد زمني طويل ومحصور بين تاريخين لهما دلالة اجتماعية، تسوغ اختيارات أصحابها.
- على المستوى الزمني: هناك إمكانية الحديث عن تغطية مهمة عبر تسعة قرون: فمن القرون الأربعة الأولى [أطروحتا هاشم العلوي القاسمي وأحمد الطاهري] إلى العصر المرابطي [عمل إبراهيم القادري بوتشيش] إلى العصر الموحدى [عمل أحمد الحمودي] إلى القرنين 5 - 6 هـ، 11 - 12 م [عمل عبد الإله بنمليح] إلى القرنين 8 - 9 هـ، 14 - 15 م [عمل محمد ياسر الهلالي]، أمكن الحديث عن ملامح تاريخ اجتماعي للمغرب الوسيط من الفتح الإسلامي إلى القرن 9 هـ، 15 م.
- على المستوى المجالي، يلاحظ تنوع بين المغرب الأقصى [هاشم العلوي القاسمي وأحمد الحمودي ومحمد ياسر الهلالي] والمغرب والأندلس [إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الإله بنمليح] والأندلس [أحمد الطاهري]، بشكل غطى التاريخ الاجتماعي لمجال الغرب الإسلامي وخاصة منه المغرب الأقصى.
- على المستوى الموضوعاتي: هناك ثلاثة وحدات: الحياة الاجتماعية [إبراهيم القادري بوتشيش] ثم المجتمع [هاشم العلوي القاسمي ومحمد ياسر الهلالي] ثم العامة [أحمد الطاهري وأحمد الحمودي] ثم الرق [عبد الإله بنمليح]. ويبدو أن هناك مجالات عديدة تنتظر من يقتحمها.. ويلاحظ من جهة أخرى غلبة الحديث عن فئة اجتماعية هي العامة لدى معظم هذه الأعمال، تصرّحاً في العناوين أو تضميناً، وعدم تناول شريحة منها، عدا أنموذج واحد [الرق، عبد الإله بنمليح].
- وأخيراً نتساءل عن عدم إثارة الباحثين الخمسة مفهوم الأقلية الدينية أو المذهبية.. رغم طبيعتها الاجتماعية الواضحة.